«الدولة المستقلة» وتحوّلات الصراع

عماد هرملاني

جرت العادة على وصف مسيرة الصراع العربي ـ الاسرائيلي بأنها مسيرة الفرص الضائعة للسلام. ويلاحظ المتتبع لمسيرة هذا الصراع ان العقود الأربعة الماضية استنزفت العديد من المشاريع والمبادرات التي حاولت، بقدر متفاوت من الجدية، التوصّل إلى صيغة يقبل بها الجانبان، العربي والاسرائيلي، من أجل تسوية النزاع الدائر فيما بينهما، وتتيح، بالتالي، اقفال ملف ما اصطلح على تسميته بأزمة الشرق الاوسط، التي شكّلت احدى بؤر التوتر الساخنة في النظام الدولي السائد منذ نهاية الحرب الكونية الثانية. وبصرف النظر عن الطرف الذي يتحمّل مسؤولية افشال هذه المبادرة، او تلك، فالواقع ان الحديث عن الفرص الضائعة كثيراً ما يتغافل عن حقيقة ان طبيعة الصراع، وتعقيداته الجوهرية، كانت هي ذاتها تحول، طوال السنين الماضية، دون جعل هذا الصراع قابلاً للتسوية من الوجهة المبدئية، وان التحرك باتجاه تسوية الصراع ـ حتى ضمن الحدود التي تحكم سقف هذا التحرك خلال المرحلة الراهنة ـ كان يقتضي سلسلة التحولات التي قطعتها الأزمة، والتي افضت، في المحصلة، إلى تغليب النظرة السياسية لدى جانبي الصراع، بنسب متفاوتة وضمن ملابسات سنعرض لبعضها في هذه الدراسة، على الرؤية الأيديولوجية التي تحكّمت بمواقف الجانبين وتقديراتهما لآفاق الصراع الدائر فيما بينهما.

واذا كان من الثابت، الآن، ان الخطوة الحاسمة على طريق الانتقال بالصراع من مدار التناحر الأيديولوجي إلى معترك المواجهة السياسية استندت، إلى حد بعيد، الى مبادرة السلام التي أطلقها المجلس الوطني الفلسطيني في دورته التاسعة عشرة، في الجزائر، والتي تمثّلت في اعلان وثيقة استقلال الدولة الفلسطينية، فالواقع ان مسيرة التحولات التي طرأت على الموقف الفلسطيني من موضوع الدولة المستقلة يبيّن حقيقة أنه بمقدار ما يمكن القول ان وثيقة استقلال الدولة الفلسطينية شكلت نقلة نوعية على طريق تسييس الصراع، وفتح أبوابه على امكانات المعالجة الواقعية، يمكن القول، ايضاً، ان الموقف السياسي الجديد الذي اتخذه المجلس الوطني الفلسطيني في دورة اعلان الاستقلال وجد مرتكزه الرئيس في وقائع التجربة الطويلة الماضية التي فرضت على كل من طرفي الصراع العربي ـ الاسرائيلي أن يتخلّى عن الكثير من عناصر مشروعه الأيديولوجي الخاص، وأن يكيّف باقي عناصر هذا المشروع مع مقتضيات الأمر الواقع الذي أفرزته تفاعلات الصراع.

سلطة الأيديولوجيا

إذا جاز الابتعاد قليلاً من أسلوب التعامل مع تعقيدات الصراع العربي ـ الاسرائيلي بطريقة وصفية، يبدو أن المرء لم يعد يحتاج إلى الدخول في سجالات متفقهة لتفنيد القائمة المعروفة